الدليل الرابع
هل كان للرسول معلم ؟

افترضت طائفة من قريش وجود معلم من البشر لرسول الله ، وقال بعضهم : غلام رومي أعجمي نصراني ، يشتغل في مكة قيناً (حداداً) يصنع السيوف ، وكان الغلام رغم عاميته ملماً بالقراءة والكتابة ، ولربما وقف محمد ذات مرة أمام حانوته فقالوا هذا هو معلمه وقالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ .

وبعد فترة وجدوا في هذا هزءاً من أنفسهم ، ومن شعرائهم ومن كبريائهم ، فرفعوا الاتهام إلى مستوى آخر ، قالوا ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ علماً بأنهم مجمعون على أميته بلا خلاف بينهم . . .

وقال المستشرقون : إن الراهب بحيرا كان يعلم الرسول وهو من أتباع الأريوسين الموحدين ـ علماً بأن الرسول قد لقيه في طفولته خلال سفرته مع عمه أبي طالب. ولا بأس أن نناقش هذا الموضوع الخطير لنتعرف مصدر الرسالة ، ولنرد على فرضيات قريش ومن يتابعون هذه الافتراضات في عصرنا الحاضر ، لأنه إن ثبت بطلان الصلة مع الغلام الرومي ومع الراهب بحيرا تأكد

مصدر القرآن بأنه من الوحي . .

فالذي زعم أنه كان للرسول معلم ! . . نقول له ، قل لنا ما اسم هذا المعلم ؟ ومن ذا رآه وسمعه ؟ وماذا سمع منه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ؟ فإن كلمة بشر تصف لنا هذا العالم الذين يمشون على الأرض مطمئنين ويراهم الناس غادين ورائحين ، فلا نسمع دعواهم بدون تحديد وتعيين ، بل يكون مثل مدعيها كمثل الذين يخلقون لله شركاء لا وجود لهم إلا في الخيال والوهم ، فيقال لهم كما قيل لهم : قل سموهم أم تنبئونه بما يعلم في الأرض أم بظاهر من القول . . أما كان يجدر بكفار قريش أن يراقبوا محمداً وهو فيهم وبينهم ، ولا يبتعد عن ديارهم ، يجمعون الناس على إثبات دعواهم . . وهذا لعمري هو الإفك العظيم . . بل نقول : هل ولد الرسول في المريخ ، أم نشأ في مكان قصي عن العالم ، فلم يهبط على قومه إلا بعد أن بلغ أشده واستوى ثم كان لا يرونه بعد ذلك إلا لماماً ؟ ألم يولد في حجرهم ؟ ألم يكن يمشي بين أظهرهم ، يصبحهم ويمسيهم ؟ . . ألم يكونوا يرونه بأعينهم في حله ورحيله وصباحه ومسائه . . ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ نعم إن قومه قد سوغت لهم أنفسهم أن يقولوا هذه الكلمة ليدرؤوا بها عن أنفسهم الجدال الطويل ، فقالوا إنما يعلمه بشر . . ترى هل هم جادون في هذه التهمة ، وهل يتهمونه بالتعلم من بشر ، له تلك المنزلة العلمية التي يستحق بها مكانة الأستاذية

لمحمد . . ؟! . .

كلا إنهم ما كان يعنيهم أن يكونوا جادين محقين ، وإنما كان همهم أن يدرؤوا عن أنفسهم معرة السكوت والافحام ، بأي صورة تتفق لهم من صورة الكلام بالصدق أو بالكذب ، بالجد أو بالهزل . . .

ولتطرح المسألة على بساط البحث مَن الرجل الذي زعموا أنه يعلم محمداً ، ترى هل نظنهم قد نسبوا ذلك إلى رجل منهم ؟ لا . . . فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلاً من أن يعلموا رجلاً جاءهم بما لم يعرفوا ولا آباؤهم .

أم تحسبهم قد نسبوا ذلك إلى معلم في المدينة المنورة ، أو في بلاد الشام وذلك بسبب إقفار العلم والمعرفة في مكة ـ وقد سار بعض الملحدين على المنوال نفسه وكرروا ما قالت قريش بدعواها بوجود معلم لمحمد ومنهم من بحث الموضوع وتاه في التواءات المعرفة ومنهم من لم يكترث بهذا الموضوع ـ ثم وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصاً يتحقق فيه شرطان :

أولهما : أن يكون من سكان مكة نفسها لترويج دعوى أنه يلاقيه ويملي عليه بكرة وأصيلاً .

وثانيهما : أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ليمكن أن يقال إن عنده علم ما لم يعلموا ؛ وقد التمسوا هذه الأوصاف فوجدوها عند

حداد . . إنه حداد رومي . . نعم وجدوا في مكة غلاماً بسيطاً لم يكن أمياً ، ولا وثنياً مثلهم بل كان نصرانياً ، يقرأ ويكتب فكان من أجل ذلك خليقاً في زعمهم أن يكون أستاذاً لمحمد وبالتالي أستاذاً لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمع . . ولئن سألتهم : هل كان هذا لهذا الغلام الوقت الكافي لدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دخيلها ، ورد متشابهها إلى محكمها ؟ وهل كان مزوداً في عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهيم ؟ لعرفت الجواب ، إنه غلام حداد منهمك في مطرقته وسندانه ، وإنه كان عامي الفؤاد ، لا يعلم الكتاب إلا أماني ، أعجمي اللسان ، لا تعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ، ولا أحد من قومه . ولكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقبه الأستاذية التي منحوه إياها على رغم أنف الحاسدين !! . .

علماً بأن البلغاء من قريش لم يستطيعوا مضاهاة القرآن كما مر معنا في بحث المعجزة الكبرى وهكذا ضاقت بهم دائرة الجد ، فما وسعهم إلا فضاء الهزل ، وهكذا أمضوا في هزلهم ، حتى خرجوا عن وقار العقل ، فكأن مثلهم كمثل من يقول : إن العلم يستقي من الجهل ، وإن الإنسان يتعلم كلامه الأديب من الببغاء ! وكفى بهذا هزيمة وفضيحة لقائله : ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ .

ولقد رأوا في هذا الأسلوب ، من حلاوة الفكاهة ، والملحة مايسيغ حرارة الزور والباطل ، ورأوا في هذه الصورة الخيالية من التهكم والسخرية ما يشفي صدورهم ويجعلهم يتضاحكون بملء أفواههم وقد قص القرآن هذا بقوله :

﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً . . . ﴾ ثم يجيب ويخفف عن الرسول بقوله :

﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً . . ﴾ .

ولكنهم ما دروا أن في طي هذه السخرية سخرية بقولهم : وأنهم قد شهدوا فيها على أنفسهم وعلى مر العصور أنهم كانوا أجهل الأمم وأبعد الأمم عن المحاكمة المنطقية تجاه المصلحين . . والغريب كل الغرابة أن يقال : غلام سوقي غريب عنده من العلم ما ليس عندهم ، ولا يمكن لهم أن يأتوا بكلام شبيه له ، فياله من نطق ، كان العي في موضعه خيراً لهم وأستر عليهم ، وياله من سلاح أرادوا أن يجرحوا به خصمهم فجرحوا به كرامتهم ومكانتهم وأنفسهم من حيث لا يشعرون . .

ويا ليت شعري أنى لهذا الغلام أن يكون مرجعاً علمياً كما أرادوا أن يصفوه ، فما الذي منعهم أن يأخذوا عنه كما أخذ صاحبهم ؟ وبذلك كانوا يستريحون من عنائه ويداوونه من جنس

دائه ، بل ما منع ذلك الغلام أن يبدي للعالم صفحته فينال في التاريخ شرف الأستاذية ، أو يتولى بنفسه تلك المكانة العالية ؟ وإننا لنعجب من رجل أوجد بحثاً ثم لا يتلفظ بأنه له . . فكيف بمن أوجد فكرة متكاملة وعقيدة شاملة . . ؟!

وأما من قال بأن معلمه كان بحيرة الراهب فعلينا أن نتعرف فترات اللقاء بينه وبين محمد الرسول . . فإن أمر لقائه معه كان واحداً لا ثاني له ، ولم يكن مستوراً ، بل كان معه أناس . . . فعندما سافر في المرة الأولى إلى بلاد الشام مع عمه أبي طالب ، كان لفترة قصيرة وقد حدثنا التاريخ الذي سجل سيرة محمد . . ما حدث وما جرى في هذا اللقاء . . وهل يعقل أن رسول الله جمع في تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن وتفاصيل أخباره فيما بين بداية العالم ونهايته !! ولماذا انتظر منذ صغره حتى الأربعين ولم يصرح بأمره . . ولماذا لم يدع إلى هذه الرسالة بحيرة الراهب بذاته ؟ . . ولماذا لم يتخذ خصومه من قريش هذه الحجة مع شدة سعيهم في هدم دعواه والتجائهم لأوهن الشبهات في تكذيبهم ، وقد كان هذا السلاح ، أقرب إليهم ، وكان وحده ـ لو كان حقيقياً ـ أمضى في إبطال كل ما لجؤوا إليه من مهاترة ومكابرة . . . وإن سكوت أهل قريش عن ذلك ، وسكوت التاريخ عن ذلك كله حجة كافية على عدم وجوده . لأنه ليس من الهنات الهينات التي يتغاضى عنها الناس الواقفون لهذا الأمر بالمرصاد . على أن التاريخ لم يسكت بل

نبأنا بما كان من أمر اللقاء بين الراهب بحيرة والرسول ﷺ ولقد حدثنا التاريخ عن راهب الشام قائلاً : إنه لما رأى هذا الغلام رأى فيه سمات النبوة الأخيرة وحليتها في الكتب الماضية مما أنطقه بالبشرى إلى عمه قائلاً له : إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم وهكذا أثبت لنا التاريخ وحق لنا القول : بأن من عرف للتاريخ حرمته ، وآمن بوقائعه كما هي ، كانت هذه الوقائع رداً على كل زعم باطل ، وكل فكرة لا دليل لها . .

وهذه وقائع التاريخ كلها تشهد كذب التخرصات الملفقة في هذه الحادثة التي ما جاءت إلا بافتراءات مدحوضة لمستشرق حديث . . أراد أن ينبش القبور لعله يجد مطعناً لهذه الشريعة الغراء[1] . .

ومن قائل يقول إن التاريخ قد كتبه المسلمون ونقحوه ، وتركوا كل ما يناقض عقيدتهم والجواب على ذلك بسيط . أما كان الغزل يناقض العقيدة ، أما وجد له من ينقله ويحفظه وكذلك العصبيات القبلية أما تخالف الشريعة ، أما وجد من يتبناها ويدافع عنها حتى عصرنا الحاضر . . ولا عجب أن يكون في عصرهم منافقون

---

(١) صَدَرَ كتابان حول هذا الموضوع وهما (قس ونبي) لأبي موسى الحريري وكتاب (الإسلام بدعة نصرانية) لإلياس المر وسنقوم بالرد عليهما بكتاب مستقل إن شاء الله تعالى .

ومسيحيون ويهود . . لماذا لم ينقلوا هذه الفكرة . بل تجد أول من قال ذلك المستشرقون الجدد . . بعد أن أذهلتهم الحجج وضاقت عليهم البراهين ، وضاعوا في المبادئ والقيم السامية التي وجدوها في القرآن . . . فلم يستطيعوا الرد إلا بهذا الإفك الذي لا يصدقه إلا مخبول ، معجب بهم ، مأفون بالباطل . . . وأقوله ، ولنتساءل : لماذا لم يدَّع بحيرة بذاته هذه الدعوى . . . وهل يعقل لرجل عنده هذه الأفكار والآراء العالمية ، ثم يتركها لتنسب إلى غيره . ونحن نرى أن الكثير من الأدباء والمؤلفين ينتحلون أسماء كتب ليس لهم إما ترجمة أو تنقيحاً . . ثم يدعون أن هذا الكتاب أو ذاك من بنات أفكارهم . .

ونستطيع القول بأن محمداً جاء بأفكار تناقض المسيحية واليهودية وهل يعقل لبحيرة القبول بعرض آراء تناقض عقيدته التي مات عليها وحاول القرآن كذلك أن يصحح الأخطاء التي كانت عند اليهود والنصارى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ﴾ . .

ويقول الأستاذ أمستاسي هايدون في كتابه (تراجم الأرباب) (إن وحدانية الله في الإسلام لم يسبقها مثيل لها في صفة الوحدانية التي لا هوادة فيها ولا في غيرها من جملة الصفات المستفادة من

أسماء الله الحسنى) ، وهو من كبار علماء مقارنة الأديان ، فأنى لبحيرة بهذه العقيدة الشاملة الموحدة ، التي لا مثيل لها في تاريخ الأديان . . ؟؟ . .

علماً بأن محمداً لم يطلع على الكتب الدينية السابقة . ويقول المؤرخ ر . ف . بودلي « إن أول ترجمة عربية رسمية للعهدين القديم والحديث ظهرت بعد موت محمد بقرون » .

ونستطيع التساؤل : هل كان في العلماء والحكماء يومئذ من يصلح أن يكون له على محمد وقرآنه تلك اليد العلمية والذات المعلمة ؟ . .

ويقول الملحدون « إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثل روح عصره أصدق تمثيل »[1] .

وهذه كلمة حق في حدود معناها الصحيح فنحن سنأخذها باعترافهم وندعوهم إلى استجلاء تلك الصورة التي حفظها القرآن في مرآته الناصعة مثالاً واضحاً لعلماء عصره فليقرأوا (الزهراوين البقرة وآل عمران) وما فيهما من المحاورة لعلماء اليهود والنصارى في العقائد والتاريخ والأحكام ، أو ليقرأوا ما شاءوا من السورة المدنية أو المكية التي فيها ذكر أهل الكتاب ، ولينظروا بأي لسان

---

(١) النبأ العظيم ص٥١ .

يتكلم عنهم القرآن ، وكيف يصور لنا علومهم بأنها الجهالات ، وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات . وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات . . فإن أنت أحببت زيادة بيان ، فإليك نموذجاً من وصفه وتفنيده لأغلاطهم ومغالطاتهم التاريخية ﴿ يا أهل الكتاب لمَ تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ [آل عمران : ٦٥] .

﴿ وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] .

ويقول في كيفية إنكار المشركين للمثل الذي ضرب بالمسيح عليه السلام ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا آلهتنا خيراً أم هو ﴾ ؟! . . [الزخرف : ٥٧] .

فهل يعقل لأشخاص كانوا تائهين في دياجير الظلام ، وعقابيل الضلال أن يصبحوا أساتذة لرجل تخلى عن كل فكرة لديهم ولم تظهر عندهم مقدمات التصحيح في أفكارهم وعقيدتهم . ومن هو بحيرة في التاريخ لو لم يكلم عم رسول الله . إنه واحد من الذين طوتهم الأيام . . ثم هناك فكرة أخرى كانت مستشرية عند النصارى وهي احتكار العلم عند الرهبان ومنهم بحيرة فكانوا لا يعلمون الناس ما تعلموه إلا بعد مشقة وعذاب وخدمة لهم . . . وهذا ما يرد على افترائهم . . . فكيف لا يعطي علومه للكبار العاقلين ثم

يعطي علومه لطفل صغير اجتمع به مصادفة . . ثم يعطيه لغة جامعة للهجات العرب مجتمعة ، لأن القرآن قد جمع في طياته ألفاظاً من لغات عدة ولهجات متناثرة ولذا قال الواسطي في كتابه الذي وضعه في القراءات العشر « إن القرآن فيه أربعون لغة عربية عدّد منها قريش وهذيل وكنانة . . . » فأنى للراهب أن يكتب في لغة هؤلاء جميعاً من عند نفسه ، وأنى لمحمد العربي الأصيل أن يأتي بهذه اللهجات الكثيرة المتنوعة ، وما هذا إلا دليل على القدرة الإلهية الجامعة لهذه اللهجات والألفاظ ، ومن قال بأن هذا القرآن من صنع بشر ، أو بتلقين راهب أو بتعليم غلام ، إنه لعمري هو المنطق الملتوي الذي لا يعتمد إلا على عناد وضلال عميق الجذور ، لا يريد صاحبه الرضى بالحق ولا بالأدلة المنطقية . . . وما هو إلا حاقد مأفون أو مكابر جهول ، أو متعصب أعمى وعلى عقله غشاوة . . .

وبعد هذا كله لا يسعنا إلا القول بأن هذا العلم الجديد الذي جاء به محمد وليد تعلم جديد ومهما حاول المكابرون أن يصفوا الافتراءات ويشككوا فلن يفلحوا لأن الشمس ساطعة ونورها مبين وإن هذا القرآن لهو الدليل القاطع على أن التعليم صادر من قوة ليست من قوى البشر بل هي أعلم وأعلى وأشمل إنها قوة الله جل وعلا . . .

ويبقى سؤال أخير : هل كانت العقيدة منبثقة من ذات محمد ؟

إن الإنسان بفطرته إذا أبدى فكرة لا ينسبها إلى غيره بل يصرح وينادي بها لنفسه ، وما كان محمد في هذه السيرة خلال دعوته إلا مبلغاً ورسولاً أميناً ، وقدوة عملية للفكرة التي نادى بها . . . إن محمداً لم يهجم على الإيمان هجوم يوم ، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل غيره ، ولكنه تردد حتى استوثق وجزع حتى اطمأن وما كانت هذه العقيدة التي آمن بها إلا نوراً شع من السماء إلى الأرض فأمد الإنسانية بالمنهج الكامل وقال تعالى مبيناً مصدر هذا النهج القويم :

﴿ علَّمه شديد القوي ذو مرة فاستوى ﴾ وإن النفس البشرية عندما تقترب من معين القرآن تشعر بصفائها وعروجها إلى مدارك الكمال وتتيقن بسمو مصدره وتؤمن بأنه تنزيل حليم خبير . . ولا بأس أن يتصفح القارئ هذه الآيات ليلمح القدرة الناطقة ، والقوى الفعالة في هذا الكون :

﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون، أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون . أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذي

تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [الواقعة : ٥٧ ـ ٧٤] .

ولقد تفتقت قرائح تنادي بأن الإسلام بدعة نصرانية وصدر هذا الكتاب لمؤلف حاقد هو إلياس المر أراد أن يثبت خلال بحثه أن ورقة بن نوفل هو الذي علم محمداً ﷺ التوراة والإنجيل وتم اتفاق بين خديجه وورقة ومحمد ﷺ على إظهار هذه المسرحية (النبوءة) فقام وأعلن هذا الدين الجديد وبمحاولة يائسة واضطراب فكري يظهر النقاط المشتركة في القصص الموجودة في التوراة والإنجيل فيقول (إن القرآن أورد قصص الأنبياء الأولين كما أوردتها التوراة فلا زيادة منها ولا نقص إلا في الأشياء البسيطة التي لا تؤثر في جوهر الدين اليهودي . . .

إن الكتب السماوية كلها من عند الله عز وجل وما جاء الرسل إلا متتابعين حتى تصل الإنسانية إلى مرتبة النضج العقلي لفهم الوحي واستيعاب محتواه والتفاعل معه بفكر تجريدي راقٍ وهذا هو الإسلام الذي هو نهاية مطاف تسلسل الأنبياء .

فالتشابه في قصص الأنبياء ما هو إلا دليل قطعي على صدق نبوة محمد ﷺ ، وصدق الوحي ، وهو الدليل الموثق لصدق

القرآن في سرده لهذه القصص التاريخية الخالدة للصراع بين الحق والباطل .

وأروع جواب أورده الكونت دي كاستري في كتاب محمد رسول الله لآرتيين دينيه قال أما فكرة التوحيد فيستحيل أن يكون هذا الاعتقاد ، وصل إلى النبي ﷺ من مطالعته التوراة والإنجيل . إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته ، مخالف لوجدانه منذ خلقه ، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته ، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته)[1] .

وما أورده موريس بوكاي في كتابه الإنجيل والتوراة والقرآن على ضوء المعارف الحديثة من دراسة تحليلية للكتب المقدسة وعدم توافقها مع المعارف العلمية ، وتناقض بعض آياتها مع بعض لدليل قاطع على أن القرآن له استقلالية تامة عن الكتب المقدسة المنسوخة بما قدم من أدلة علمية حديثه متوافقة مع المعارف العلمية ولم يتناقض معها . بل توافق مع العلوم الحديثة بشكل رائع .

والمتتبع لسيرة الأنبياء في التوراة يجدها في افتراق بين كقصة داود عليه السلام في الإصحاح ١٥ عن ذكر قتل قائده أوريا ليأخذ

---

(١) من كتاب محمد رسول الله لآرتين دينيه .

زوجته منه .

أمّا ما ورد في القرآن فأنبياء بني إسرائيل لهم في التوراة ذكر يتناقض مع ما جاء في القرآن وما جاء به محمد رسول الله ﷺ للعالمين لا يستأثر بقوم ولا يؤثر قوماً على قوم .

إنه صوت النبي محمد عليه الصلاة والسلام الذي لا يعلم الغيب ، ولا يملك خزائن الأرض ، ولا يدفع السوء عن نفسه فضلاً عن قومه ، ولا يعلم أن الخوارق والمعجزات تنفع أحداً ، لا ينتفع بعقله .

إنه صوت النبوة الذي يقول إنني بشر مثلكم وأنا إنسان كسائر الناس وما أنا إلا بشير ونذير فأي استقاء ، وأي تأثر ، وأي مصدر يستطيع أن يولد فيه هذه العقيدة الجديدة التي تتناقض مع الكثير من تلك الأفكار المتناثرة في التوراة والإنجيل .

إنه نداء متفرد في تاريخ الأديان ، إنها النبوة الخاتمة للنبوءات والناسخة لكل العقائد والأديان بعد نضج العقل ، وسمو النفس وتنامي الحضارة ليرتقي بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال بفكر تجريدي واعٍ .